وسطية أهل السنة في مسائل الاعتقاد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

وبعد: فقد تحدثنا في المقالات السابقة عن خطر البدع وأثرها في تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، وكيف كانت سببًا في ظهور الفرق والمذاهب التي خالفت منهج الكتاب والسُّنة مما أدى إلى التفرق والاختلاف الذي نهى الله تعالى عنه. ومن تأمل منهج أهل السنة والجماعة وجد أنه يقوم على الاعتدال والوسطية، بعيدًا عن الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء في جميع مسائل الاعتقاد. وفي هذه المقالة نتناول جانبًا من جوانب تميز أهل السنة والجماعة، وهو وسطيتهم في مسائل الاعتقاد.

د. عبد الله شاكر

(أ) تسليم الصحابة للنصوص الواردة في القرآن والسنة، وفهم معانيها:

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلون آيات الله -عز وجل- ويتلقون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُنته المطهرة، ونجزم أنهم كانوا يقرءون القرآن قراءة تدبر، وأنهم كانوا يفهمون معاني ما يتلون ويقرؤون؛ فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه.

وكذلك كان تلقيهم لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقّي فَهْم وتدبر؛ لأنهم مُتعبَدون بالعمل بها كما هم متعبدون بالقرآن الكريم.

وهذا هو الظن في صحابة النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا فقهاء علماء يفقهون ما يسمعون؛ وإذا سمعوا أمرًا قاموا باتباعه وأدوا ما طلب منهم (رضوان الله عليهم)، وإذا أشكل عليهم شيء مما جاء فيها أو خفي عليهم معناه، أو عزب عن أذهانهم فَهْم المراد منه -أي: من السنة- سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فيبين لهم ما نزل إليهم ويوضح ما خفي عليهم.

جاء في (الصحيح): أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من نُوقش الحساب عذب»، وفي رواية: «مَن حُوسب عُذب». فقالت:

Upload by : altawhedmag.com

قلت: أوليس يقول الله تعالى: «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» (الانشقاق: ٨)؟ قالت: فقال: «إنما ذلك العرض؛ ولكن مَن نُوقش الحساب يهلك».

ومع ذلك لم يرد قط من طريق صحيح، ولا سقيم، عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم أو على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بل كلهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام في الصفات، وربما اختلفوا رضي الله عنهم في شيء من الأحكام وأمور الحلال والحرام؛ لكنهم لم يختلفوا في أسماء الله وصفاته وإثبات ما ورد منها.

(ب) بيان مذهب «جهم بن صفوان المعطل» في الصفات:

في الحقيقة لم يصل إلينا شيء من كتب الجهمية الأوائل؛ لأننا لم نقف على كتب لهم، وقد فتش كثير من أهل العلم المكتبات سابقًا في عصور متقدمة، وحتى في هذه الأزمان المتأخرة فلم يجدوا شيئًا تركه أصحاب هذا الفكر بأقلامهم؛ غير أننا نستطيع أن نقف على الكثير من أقوالهم، واعتقاداتهم من خلال ما دوَّنه عنهم بعض الأئمة ومؤلفو كتب الفرق والمقالات، وما سجَّله بعض المؤرخين من مقالاتهم في ثنايا تراجمهم وأخبارهم.

ولا شك أن أهل العلم الصادقين كانوا يتحرون النقل بأمانة؛ فإذا كتبوا؛ كتبوا بصدق ووعي ودراية، ومما بلغنا من قولهم في ذلك ما ذكره الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله تبارك تعالى) في كتابه: (الرد على الجهمية والزنادقة)؛ حيث قال: "وزعم -أي: جهم- أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه، أو حدّث عنه رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته؛ كان كافرًا وكان من المشبّهة، وإذا سألهم الناس عن قول الله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (الشورى: ١١)؛ يقولون: ليس كمثله شيء من الأشياء، وهو تحت الأراضين السبع كما هو على العرش، ولا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، ولم يتكلم ولا يتكلم، ولا ينظر أحد إليه في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يُوصَف ولا يُعرَف بصفة».

هذا ملخص ما ذكره الإمام أحمد عن جهم بن صفوان المعطل.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا كان جهم وأمثاله يقولون: إن الله ليس بشيء، وروي أنه قال: لا يسمى باسم يسمى به الخلق؛ فلم يسمه إلا بالخالق القادر؛ لأنه كان جبريًّا يرى أن العبد لا قدرة له».

(ج) بيان مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات:

أخذ المعتزلة عن الجهمية القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، ونفي رؤية الله (عز وجل) في الآخرة، وقد أشار الإمام أحمد -رحمه الله تعالى- إلى أن بعض أصحاب عمرو بن عبيد أحد رءوس الاعتزال -كما هو معلوم- قد تبع جهم بن صفوان على مقالته وأخذ عنه، وكان بين جهم وواصل بن عطاء زعيم المعتزلة الأول مكاتبات، وقد أخذ بشر المريسي المعتزلي مقالة الجهم بن صفوان واحتج لها، وجرَّد القول بخلق القرآن وناظر عليه.

يقول ابن المرتضى المعتزلي في بيان ما أجمعت عليه المعتزلة: وأما ما أجمعوا عليه، فقد أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثًا قديمًا قادرًا عالمًا حيًّا، لا لمعان، ليس بجسم ولا عَرَض ولا جوهر، عينًا واحدًا لا يُدرَك بحاسة، وقوله: لا لمعان معناه: أنهم يثبتون كونه عز وجل قادرًا، عالمًا حيًّا، أسماء مجردة لا تدل على صفات، فهو قادر بلا قدرة، عالم بلا علم، حي بلا حياة.

ويوضح هذا قول الشهرستاني -رحمه الله تعالى-: والذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصف ذاته، ونفوا الصفات القديمة أصلًا فقالوا: هو عالم بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة؛ هي صفات قديمة ومعان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات في

Upload by : altawhedmag.com

القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية.

(د) بيان مذهب الأشاعرة:

الأشاعرة هم الذين أثبتوا الأسماء وبعض الصفات، ونفوا أو أوّلوا البعض الآخر، وهؤلاء قد اتفقوا على إثبات بعض الصفات التي يسمونها صفات المعاني: وهي القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، وقالوا: إن العقل والسمع دلّا على هذه الصفات ولذلك أثبتناها. وفي ذلك يقول البغدادي-وهو من أئمة المذهب الأشعري-: "أجمع أصحابنا على أن قدرة الله عز وجل وعلمه وحياته وإرادته وسمعه وكلامه صفات له أزلية. واتفقوا على وجوب تأويل بعض الصفات ونفيها عن الله عز وجل؛ وذلك مثل صفة المحبة والرضا وغيرها من الصفات الاختيارية التي تقع بمشيئة الله وإرادته".

ومذهب الرافضة مذهب غريب عجيب؛ فهم كانوا في أول حالهم في الصفات مشبهة يشبهون الله عز وجل بخلقه، ويمثلون صفات رب العالمين بصفات المخلوقين، ثم بعد ذلك انقلبوا على الضد لما تتلمذوا على أيدي المعتزلة قالوا بقولهم وذهبوا إلى مذهبهم، في نفي الصفات عن الله وتأويل صفات رب العالمين سبحانه وتعالى، جل في علاه.

ولا شك أن هذا من الانحراف الذي وقع فيه هؤلاء الناس بسبب تركهم للكتاب والسنة، وعدم اعتصامهم بما جاء به الخبر عن الله، وبما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بيان قول أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته

أهل السنة والجماعة (رحمهم الله تبارك وتعالى) هم أهل الوسط، هم أهل الاعتدال، وقفوا بين هؤلاء وهؤلاء؛ ولذلك كانوا على الحق والصراط المستقيم؛ ولذلك لا بد من بيان مذهبهم في ذلك، والإشارة إلى ما كانوا عليه (رحمهم الله تبارك وتعالى)؛ فأهل السنة والجماعة كان من أصولهم التي يدينون بها رب العالمين سبحانه وتعالى: إثبات ما ورد في كتاب الله عز وجل أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من أسماء الله وصفاته، لا يُفرّقون بين أسماء الله وصفاته، ولا بين بعض صفاته (جل في علاه) وبعض؛ بل قولهم في الجميع واحد، لا ينفون ولا يؤولون شيئًا منها، ولا يُكيّفون أو يشبهون شيئًا منها بصفات المخلوقين.

ولذلك صوّر الإمام ابن عبد البر (رحمه الله تبارك تعالى): مذهب أهل السنة والحديث -وهم أهل سواء السبيل في صفات الله سبحانه وتعالى- فقال: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز؛ إلا أنهم لا يكيّفون شيئًا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة، وهذا حق؛ فأهل السنة يثبتون ولكنهم لا يشبهون ولا يكيفون.

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تبارك تعالى) مذهبهم تقريرًا شافيًا واضحًا، وهو إمام عالم جليل عرف مذهب السلف ونشره وأذاعه رضي الله عنه، وقد بيّن مذهبهم في ذلك فقال:

مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن يُوصَف الله عز وجل بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف وتمثيل، يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات، يثبتون له صفات الكمال، وينفون عنه ضروب الأمثال، ينزهونه عن النقص والتعطيل، وعن التشبيه والتمثيل، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل «ليس كمثله شيء» (الشورى: ١١)؛ رد على الممثلة، «وهو السميع البصير» (الشورى: ١١)؛ رد على المعطلة، فمذهبهم إذًا بين التمثيل والتعطيل دائر على الإثبات والتنزيه.

والحمد لله رب العالمين

Upload by : altawhedmag.com